بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾

١٤ / ٩ / ١٤٤٦هـ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا عزّ إلا في طاعته، ولا سعادة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في ذكره، الذي إذا أُطيع شَكر، وإذا عُصي تاب وغفر، والذي إذا دُعي أجاب، وإذا استُعيذَ به أعاذ. وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

هم السادة، وفي آثارهم تجد الكرامة والنَّجابة، مَعشُرهم فائق، ومجلِسُهم رائق، يهبون لك المسك، ولا يُسمِعونك إلا فرائدَ الريحان والعنبر، امتدحهم الله في آيات كريمات، حوت جمال الفصاحة، وجمعت أركان البيان والبلاغة، بيَّنتْ محاسنَهم، وأجْلَت عواقبَهم، إنهم عباد الرحمن.

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾

حدَّث الله عن صفاتهم، وأبان-ببليغ خطابه-عن

خصائصهم، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فأضافهم إلى اسمه (الرحمن) إشارةً إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته الواسعة، ثم كشف عن صفاتٍ هي أكمل الصفات، وعن نعوت هي أفضل النعوت، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ الفرقان: ٦٣.

يمشون حكماء علماء، ﴿هَوۡنٗا﴾ يمشون بالعفاف والتواضع، ﴿هَوۡنٗا﴾ متأنين غير متعجلين[1]، يمشون بلينٍ ووقار وعِفَّة، وكذلك من صفات الهَوْن أنهم يمشون ولا يفسدون في الأرض، "لأنه رُبَّ ماش هَوْنًا رويدًا وهو ذئب أطلس"[2]، ذئبٌ أمعط فيه أذى وشرّ[3].

والماشي إما أن يتماوت في مِشيته، كأنه خشبة محمولة، وهي مِشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشيَ الجمل الأهوج، يُكثر الالتفات

---

(١) عن ابن عباس أخرجه ابن جرير (١/٤٩١).

(٢) المحرر الوجيز (٤/٢١٨).

(٣) الصحاح، للجوهري. مادة (طلس).

يمنة ويسرة، وهي مِشية تدل على خفة عقل صاحبِها، وإما أن يمشي مِشية عبادِ الرحمن[1].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الفرقان: ٦٣.

لما فرغ من وصف مشيهم أبان عن وصفِ نُطقِهم، فهم مِن رزانتهم إذا خاطبهم الجاهل (كبيرًا كان الجاهل أو صغيرًا) لا يردون إلا معروفًا، ولا يقابلون الجهل بجهلٍ مثلِه، "فإن سلاح اللئام قبيحُ الكلام"[2]، فنُطقُهُم حلم وتعفف، لا نطقَ فُحشٍ وخَناء وغِلظة.

بينما رسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ ومعه أصحابُه، وقع رجلٌ بأبي بكرٍ فآذاه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانيةَ، ثم آذاه الثالثةَ فانتصر منه أبو بكر، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: "نزل ملَكٌ من السماء يُكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ وقع الشيطانُ"[3].

---

(١) زاد المعاد (١/١٦١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/١٨٢) عن محمد الباقر.

(٣) رواه أبو داود، مرسلًا ومتصلًا، فهو حسن لغيره.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ الفرقان: ٦٤

ما مرَّ من الآيات كان في نهارهم، فماذا عن ليلهم؟ فهم لما خشع نهارُهم سَهِر ليلُهم، فهم لا يتركون قيام الليل ولو بركعة، جاء رجل لابن عباس فقال: هلْ لك في أميرِ المؤمنينَ معاويةَ؛ ما أَوْتر إلَّا بواحدةٍ؟! فقال ابن عباس: "أصاب؛ إنَّه فقيهٌ!"(١)، ولذلك قال ابن عباس مرة: "مَن صلّى بعد العشاء الآخِرة ركعتين أو أكثر مِن ذلك فقد بات لله ساجدًا وقائمًا"(٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ الفرقان: ٦٥.

فهم لبصيرتهم يعلمون أن نجاتهم دعاؤهم لربهم، فيطلبون منه أعظم النجاة، ويسألونه حسن المنقلب، (رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) إن عذابها كان (غَرَامًا) ملازمًا،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير البغوي (٦/٩٤).

شديدًا، لا يفارق صاحبه، عذابٌ دائم غير منقطع، يلزمه كملازمة الغريم لصاحبه[1].

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

يقولون ذلك في دعائهم على سبيل التضرع، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنه ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

نفقاتُهم باقتصاد، فهم بين الإسراف والتقتير، بين البَذَخ والبُخل، بل هم قَوَام بين ذلك، حسنةٌ بين سيئتين، عدلٌ بين ظلمين، ليس بمسرف ولا شحيح مُقتِّر.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾

فذكر في هذه الآية أصول المعاصي كلِّها كبارِها

---

(١) كلها أقوال صحت عن السلف تحتملها الآية.

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص:٥٨٦).

وصغارِها، وهي الشرك والظلم والفواحش[1]، ومن أعظم حسنات عباد الرحمن المُنجية حسنةُ التوحيد، فهم لا يعبدون أصنام الجاهلية البائدة، ولا يَدْعُون أموات الصوفية المعاصرة، نهاك الله أن تعبد المخلوق وتذر الخالق، وأن تقتل ولدك وتَغْذُوَ كلبَك، ونهاك عن الزنى وأشدُّه أن تزني بحَلِيلَة جارك، ولما كان الزنى عظيم جعله بعد القتل في ترتيب الآية، قال الإمام أحمد: "لا أَعْلَمُ بَعْدَ قَتْلِ النَّفْسِ شَيْئًا أَعْظَمَ مِنَ الزِّنى"[2].

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾

يلق أثامًا، أي: نكالًا وعقابًا، وقد بين الله جُزْءًا من هذا الأثام فقال: (يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا)، والله لا مهانة ولا ذلّة ولا انكسار أعظمُ من الخلود في دار البوار، والمصيرِ إلى بئس القرار.

---

(١) انظر: الفوائد (ص:١١٦)

(٢) انظر: الروح (٢/٧١٥).

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

فليست التوبة تَجُبُّ ما قبلها فحسب، بل تُبدِّل التوبةُ الغدراتِ حسنات، والفَجَراتِ طاعات، قال ابن عباس: " فما رأيت النبيَّ فَرِح بشيءٍ قطُّ فرَحَه بـ (فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ)"[1]، أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال: أرأيتَ رجلًا عمل الذنوب كلَّها، فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجَة ولا داجَة، (أي: صغيرة ولا كبيرة) إلا أتاها فهل له من توبة؟! قال: "فهل أسلمت؟" قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله. قال: "نعم تفعل الخيرات، وتترك السيئات؛ فيجعلهن الله لك خيراتٍ كلَّهن!!" قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: "نعم"، فقال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/٤٧٠).

(٢) رواه الطبراني (٧/٣١٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾

من تاب وأعقب توبته بالعمل الصالح فإنه ﴿ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾، و(يَتُوبُ) أي: أن الله يوفقه للاستمرار بالتوبة، ولا يُرَدُّ على عقبيه، فهذه الآية وعدٌ من الله أن يثبته على قول الثابت إذا كان قد تاب وأيد توبته بالعمل الصالح[1].

فاللهم تب على التائبين، واغفر للمسرفين، وجعلنا في سترك وكنفك، وأنت أرحم الراحمين.

الخطبة الثانية: الحمد لله.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور. أي: لا يحضرون مجالس الباطل[2] (شهد فلان مجلس كذا أي: حَضَرَه)، والزور كل باطل، فهم لا يحضرون مجالس الشرك، ومجالس الكذب، ومجالس الغناء.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٧٨/١٩).

(٢) رجحه ابن كثير، أي من المشاهدة، لا من الشهادة (٣٣١/١٠).

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾

فهم لم يكتفوا بترك مجالس الزور، بل مرتبتهم أعلى من ذلك بكثير، وذلك أنهم إذا مروا باللغو ﴿مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ أي: يمرون مترفعين عن مجالس الكلام الدنيء. واللغو: كلامُ العَبَث الذي لا خير فيه، وليس فيه فائدة دينية ولا دنيوية.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾

ومتى ما سمعوا الموعظة، وسمعوا آيات الله تتلى في المحاريب لم يَخِرُّوا صُمًّا عن سماع الحق، عُميًا عن تَبَصُّر النور، ولكنهم يخرون وقد سمعت قلوبُهم، وأبصرت أفئدتُهم، فانتفعوا بالقرآن أيَّما انتفاع. فالمؤمنون كما وصفهم ربُّهم في كتابه: ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴾ الإسراء: ١٠٧، والمعرضون يخرون صُمًّا وعُميانا.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ ﴾

وكان من أحلى صفاتهم وأنداها أنهم لا تقرُّ لهم عين، ولا يهنأ لهم جفن حتى يروا أزواجهَم وذرياتِهم قد

دخلوا ضمن عباد الرحمن، مطيعين لله، شاكرين لأَنعُمِه، يُحْسِنُون العبادة، ولا يُجِّرون عليها الجرائر والبدع.

﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

همتهم عالية، وطموحهم في السماء، صعبٌ منالُهم، كريم فعالهم، يسألون الله أن يكونوا أئمةَ هدى يُهتدى بهم، لا أئمة ضلالة يُشقى بهم، فإن الله قال عن أهل السعادة كما في مُحكم كتابه: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾الأنبياء: ٧ ، وقال عن أهل البؤس والشقاوة: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾القصص: ٤١، قال إبراهيم النخعي: "لم يطلبوا الرياسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين"(١).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ الفرقان: ٧٥.

بعد ذلكم التطواف على كريم صفاتهم، والنظر في

---

(١) المحرر الوجيز (٦/٤٦٤).

شريف خصالهم نالوا الغرفة (بِمَا صَبَرُواْ)، فهي صفاتٌ كم احتاجت إلى المصابرة؟ وكم تاقت إلى المجالدة؟ فاستحقوا بذلك الغُرَف، قال ﷺ عن أهل الغرف: "إنَّ أهْلَ الجَنَّةِ يَتَراءَوْنَ أهْلَ الغُرَفِ مِن فَوْقِهِمْ، كما يَتَراءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، تِلكَ مَنَازِلُ الأنْبِيَاءِ لا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قالَ: بَلَى، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا باللَّهِ وصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ".

إنها منازل بعيدة، بعدُها كما يرى الإنسان الكوكب المضيء في أطراف السماء، ولما كانت بهذا البعد ظنوا أنها مقاماتٌ لا يطالُها إلا الأنبياء، فأخبر ﷺ بأنها كذلك لمن آمن وصدَّق.

والتصديق من منازل المؤمنين العالية، وإن قل معها العمل، فقد يقل عمل المؤمن فيرفع درجتَه يقينُه وتصديقُه، قال أبو بكر بن عياش: "ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في قلبه"(١).

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/١٧٣).

فهؤلاء هم عباد الرحمن، وهذه المكرُماتُ هي صفاتُهم، ودون الأنهار تجد عبقَهم وعبيرَهم، وفي أفياء الظلال تأنس بمجالسهم ورونق حديثهم، لا يؤذون، ولا يحقدون، وإنما قلوبهم مع رياح الخير، وأياديهم من فياض العطاء، "فلله، ما أعلى هذه الصفات، وأجلَّ هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة"[1].

عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد

(١) تفسير السعدي (ص:٥٨٧).